جزيرة السلام والسرور

حدث فى منتصف عام ١٩٣٨ أن أرسل متحف علم النبات بمدينة أوسلو (عاصمة بلاد النرويج) بعثة علمية برياسة الدكتور أرلنج كريستوفر الى المحيط الهادى لدراسة الأحوال الاجتماعية فى جزيرة تريستان داكونها . ولتلك الجزيرة تاريخ طريف يثير الاعجاب ويدعو الى التأمل . فقديما لعبت السفن التجارية دورا كبيرا فى حياتها الاقتصادية ، بينما كانت الحيتان تلعب دورا عجيبا فى حياتها الاجتماعية فى أواخر القرن المنصرم . فقد نظم الهواة من الصيادين الامريكانيين الرحلات الصيفية الممتعة اليها ، بغية التفكه بمنظر الحيتان الجميلة وهى تتقاتل وتتصارع ، أو قصد الترويح عن النفس بمطاردتها واصطيادها .

أما الان فقد مضى هذا كله . فالحيتان فنيت من كثرة الصيد ، وهجمت السفن أماكن أخرى . وربما يكون ذلك من بين الأسباب التى أدت الى تركيز النظام الاجتماعى لهذه الجزيرة على الأسرة كوحدة متماثلة . وقد انتظمت الأسرات جميعا فى اتحاد عام يمثله مركز رئيسى يوزع العمل على الأفراد بحسب الجنس والسن . ولكن اسم الجزيرة وحده ظل مع ذلك رمز الرياسة والقوة المقدسة .

وبمقتضى التقاليد المتبعة بين السكان يعيش كل غلام فى أسرته لا يتركها الا ليتزوج ويؤسس أسرة جديدة . وتقوم الروابط الوثيقة بين أفراد الأسرة الواحدة مقام رابطة الدم التى تنص عليها أديانا السماوية . فكل فرد فيها له كلمة نافذة وصوت مسموع . ويقيسون على الاخوة ازواج الاخوات . اذ يطلقون على كل زوج أخت كلمة أخ للدلالة على ما له فى نفوسهم من احترام وتقدير . وليس عندنا ما هو أبلغ من هذا التعبير الروحى عن علاقات المصاهرة والنسب .

وبين المائتى شخص الذين هم كل سكان الجزيرة ، تنعدم الفروق ويختفى نظام الطبقات بمعناه المألوف عندنا . والتقسيم الوحيد الذى ألفوه وعملوا به هو تقسيم العمل بحسب نوع الجنس ودرجة السن . وفيما عدا ذلك فكل فرد سيد نفسه ورئيسها ، لا يباشر سلطته الا على أفراد عائلته . وقبل بضع سنين هبطت أرض الجزيرة بعثة انجليزية أدخلت النظام البرلمانى الذى لم يلبث أن انهار من أساسه بعد رحيلها ، وضعفت سلطة الرئيس حتى أصبحت هذه الكلمة بلا معنى مفهوم . وهناك شىء آخر اعترفوا به ، وتواضعوا عليه . ومقتضاه أن من يعمل أكثر يحترم أكثر . ويمكن توضيح ذلك بأن نقول ان طبقة الفرد عندهم لا تحدد بسنه

ولا بأمجاد عائلته . ولا بنفوذ آبائه . ولا بقوته الجسمانية . وانما بكمية البطاطس التى تغلها أرضه — مثلا — ولذلك فالطفل الذى يقوم بعمل رجل يحترمونه كرجل . والشخص الذى ينقص محصوله — لسبب من الأسباب — كالمرض أو الشيخوخة أو ما أشبه — ينقص احترامه .

وأرض الجزيرة كلها ليست ملكا لأحد معين من الأهلين ، ولا تخضع لنظام الملكية المعروف ، وإنما هى فى كل وقت ، وبلا قيد ، صديقة كل من يضر بها يفأسه ليستنبت تربتها ، ومن يفعل ذلك له عليها حق هو أشبه الأشياء بحق الاستغلال ، وبما أن الأرض ملك الجميع فلها بهذا الوصف نصيب مقدر فى الماشية والأغنام التى ترعى عليها وتتغذى بخيراتها . وما يقال فى ذلك يشبه ما يقال فى السفن الصغيرة الرشيقة التى تسابق الريح حول شواطئ الجزيرة بأجنحتها البيضاء المشرعة ، كل سفينة لعدد معين من الأفراد ، وهم يعللون ذلك ، حسب فلسفتهم الخاصة ، بأن الانسان ضعيف بنفسه ، قوى بغيره ، وهذه حقيقة خالدة لا مراء فيها ، وبهذا كله يعطى التريستانيون المثل الأعلى الفذ على التضامن الكامل فى أروع صوره وأزهى الوانه .

وليس عجيبا إذن أن يعتنقوا هذه المبادئ عن طيب خاطر ، بل يقدسونها ، ثم ينفذونها بجذل وارتياح ، وهى متأصلة فى دمائهم حتى إن الأسر ليستعين بعضها ببعض حتى فى الأعمال التى يمكن الانفراد بادائها ، بل حتى فى الأعمال التى لا يجدى فيها الاشتراك أية جدوى .

أما الأخلاق والقانون فهما مرعيان الى حد لا يحلم به الشعراء والفلاسفة وجميع ذوى المثل العليا ، ولكنهما يستمدان وجودهما من نضج الوجدان الاجتماعى ، دون أن تمس الحاجة العملية إلى عقاب المشرع أو سجنه ، ولأن مخالفة القانون أو الأخلاق معناها فى عرف التريستانيين فقدان المخالف لمستواه الاجتماعى المكتسب . وليس عندهم ما هو أقسى من هذا العقاب الذى لم يطبق سوى مرة واحدة انتهت بانتحار المخالف غير مأسوف عليه من أحد .

ومن الأشياء التى لا يعرفها التريستانيون " الحقد ، والجريمة ، والشهرة " حتى أن بعض علماء النفس فسروا ذلك بأن التريستانى تنقصه الغريزة الآدمية المشهورة ، غريزة حب الظهور ، والولع بالتفوق على الآخرين ، وهم لذلك أرق الناس وأنبلهم على الاطلاق .

وبعد ، هل يمكن أن يوجد فى أية بقعة من بقاع الأرض جميعا ما يوجد بالفعل فى هذه الجزيرة الوادعة من حب وصفاء ، وراحة وهناء ؟